الانسجام التداولي في القرآن الكريم: دراسة تحليلية من منظور تحليل الخطاب لسورتي فاطر وغافر

أ.د. جاسم علي جاسم

د. عبد الرحمن بن فقيرالله البلوشي (عميد معهد تعليم اللغة العربية لغيرالناطقين بها)

معهد تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها/ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السعودية

ملخص الدراسة:

تقوم هذه الدراسة على تحليل مفهوم الانسجام التداولي في سورتي: « فاطر وغافر »، في ضوء تحليل الخطاب، وذلك من خلال اختيار محوري: السياق والمعرفة الخلفية. وهدفت الدراسة إلى بيان مدى فعالية الانسجام التداولي في السورتين الكريمتين، ومعرفة قدرة تحليل الخطاب على وصف التماسك التداولي، وتوظيفه في تعلم اللغة العربية للناطقين بها وبغيرها، وتيسير تعليمها لهم. وبيّنت النتائج أن سياق سورة: «فاطر»، تمّ بين الأحداث الكلامية، من خلال: المرسِل، والمتلقي، والمشاركين، ومعرفة الزمان والمكان، وغيرها. وكلما توفر لدى المستقبِل معلومات عن هذه المكونات، تكون أمامه حظوظ قوية لفهم الرسالة وتأويلها، ووضعها في سياقها الصحيح. واتسم سياقها بعدة سمات، هي: التوحيد، والعبادة، ومحاربة الشرك وغيرها. وهي مؤشرات يمكن اختصارها في مسألة العقيدة الكبرى: التوحيد الخالص لله. ووضَّحت السورة حقيقتين جوهريتين في غاية الأهمية، هما: الحركة والحياة، وهما الأصل في الكون، لا السكون والموت. وأن النص القرآني يصنع سياقه التأويلي بنفسه، وهو سياق ممتد (متواصل/ مستمر). وتعد المعرفة الخلفية (استعمال معرفة العالم): عملية مهمة لفهم الخطاب وتأويله، ويمكن توقعها، أو التنبؤ بها، من خلال افتراض المتكلم توفّرها لدى المستمع، عندما يصف موقفاً معيناً. وتم تمثيلها من خلال: الذكاء الاصطناعي، وعلم النفس المعرفي. وحصل التناص في سورة: "غافر"، بين المرسِل والمتلقي؛ وذلك لبيان عظمة الخالق، ووحدانيته، وهيمنته على الكون جميعاً، وللتذكير بعقابه لمن كفر وعصى. وأن العلماء العرب القدامى ساهموا مساهمة كبيرة في هذا الميدان، من خلال دراسة علوم القرآن الكريم والبلاغة العربية.

الكلمات المفتاحية: الانسجام، التداولي، القرآن، فاطر، غافر.

Pragmatical Coherence in the Holy Quran: Analytical Study of Two Verses of Fatir and Ghafir in Discourse Analysis

Professor Dr Jassem Ali JassemDr Abdul-Rahman Al-bilooshi
Instituteof teaching Arabic to non native speakers of Arabic, Islamic University of Madina, KSA

Abstract

This study deals with analysis of «Pragmatical Coherence in the two verses of Fatir and Ghafir in the view of discourse analysis by using two points: context and background knowledge. It aims to show the efficiency of Pragmatical Coherence in the two holy verses, as well as knowing the ability of discourse analysis in describing the pragmatical tenacity and employing it in teaching Arabic to native and non-native speaker. The outcomes show that the context of Fatir verse is talking place in speech events through: sender, receiver, participants, knowing of place and date and etc. Once the receiver has all these information, he will understand the message properly. The context of this verse has the following characters, monotheism, worships, fighting trap, etc. All these information can be summarized in worshiping of Allah, the one and only God. The sura showed that two facts which are: movement and life who are the core of being, not calmness and death. Also the quranic text makes a context by itself, its longitudinal/ continuous context. The background knowledge is considered as an important process to understand the speech. It also predicts what the speakers might he/ she say. It has been representative by artificial intelligence and cognitive psychology. The Intertextuality has happened in the sura of Gafir between sender and receiver, to show the almighty of Allah The one and only, His Omnipotence, and His punishment to those who don>t believe Him. The old Arab scholars had subscribed in this field through that studying the knowledge of Quran and rehtorics.

Keywords: coherence, Pragmatical, quranic, Fatir, Ghafir.

المقدمة

حاول اللغوي (تون فان ديك) – عبر كتابيه (Some Aspects of Text Grammars, 1972/ بعض مظاهر نحو النص)، و: (Text and Context, 1977 / النص والسياق) – بناء نظرية لسانية كافية للخطاب، تستطيع تحليل كثير من المظاهر الخطابية وتفسيرها، مثل: «موضوع الخطاب»، و«الانسجام»، و«البنية الكلية»، و«السياقات والأفعال الكلامية» إلخ، التي تقف لسانيات الجملة عاجزة أمامها. وهَدَفَ من وضع الكتاب الثاني (1977) إلى: «إنشاء مقاربة أكثر وضوحاً وتنظيماً للدراسة اللسانية للخطاب». وقسّمه إلى قسمين رئيسين، القسم الأول: دلالي، والثاني: تداولي. والرسم البياني أدناه يوضح هذا التفصيل (خطابي، 2006: 27):

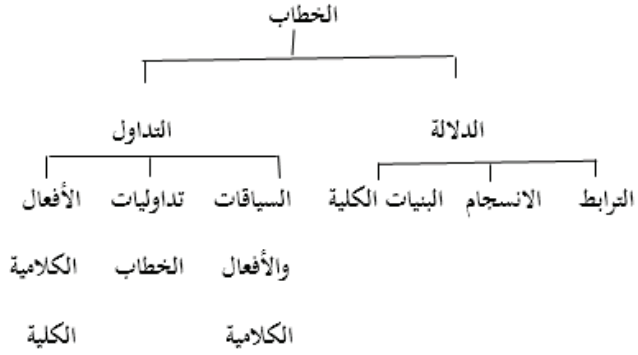

يوضح لنا هذا المخطط، أن الانسجام هو أحد المظاهر الخطابية في المستوى الدلالي، وأن السياق هو أحد المظاهر الخطابية في المستوى التداولي كذلك. وصدر بعد كتابي تون فان ديك كتاب: (تحليل الخطاب Discourse Analysis، لمؤلفيه: براون ويول، 1983م)، وهو نقلة نوعية في مجال تحليل الخطاب، لما يحتويه من مقترحات مهمة، ومناقشات دقيقة، لوجهات نظر عديدة، تنتمي إلى تخصصات متنوعة تهتم بتحليل الخطاب من زاوية تخصصها. ومن اقتراحات "براون ويول" حول ظاهرة الانسجام، أن المتكلم/ الكاتب، والمستمع/ القارئ في قلب عملية التواصل. كما أنهما على خلاف كثير من باحثي الانسجام، فهما لا يعتبران انسجام الخطاب شيئاً معطى، شيئاً موجوداً في الخطاب، ينبغي البحث عنه، للعثور عليه (على مجسداته)، وإنما هو – في نظرهما – شيء بيني، أي ليس هناك نص منسجم في ذاته، ونص غير منسجم في ذاته، باستقلال عن المتلقي، بل إن المتلقي هو الذي يحكم على نص بأنه منسجم، وعلى آخر بأنه غير منسجم، بمعنى أنهما يركزان على انسجام التأويل، وليس على انسجام الخطاب. وبتعبير آخر، يستمد الخطاب انسجامه من فهم وتأويل المتلقي ليس غير (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 267– 271)". بعد هذه التوطئة لموضوعنا، نحاول الآن أن نناقش مباحث الدراسة.

المبحث الأول

يتناول مشكلة الدراسة، وأسئلتها، وأهدافها، وأهميتها، وأسباب اختيار الموضوع، وحدود الدراسة، ومصطلحاتها، ومنهجها.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في تحليل سورتين عظيمتين – من سور القرآن الكريم، هما: فاطر وغافر.

تحليلاً تداولياً من منظور تحليل الخطاب، قائماً على مبدأي: السياق والمعرفة الخلفية، من أجل توظيف المستوى التداولي في تيسير تعلم اللغة العربية للناطقين بها وبغيرها، وفهم النصوص القرآنية الكريمة فهماً سليماً من خلال الاعتماد على سياق النص السابق واللاحق لتفسير الآيات تفسيراً صحيحاً، واستثمار المعرفة الخلفية لدى القراء في تأويل الآيات تأويلاً صحيحاً، وذلك برد المتشابه على المحكم، وغير ذلك من القضايا المهمة.

أسئلة البحث:

نحاول أن نجيب على الأسئلة الآتية:

1. ما خصائص السياق في السورتين؟
2. ما نوع السياق في السورتين؟
3. ما المعرفة الخلفية اللازمة للمستمعين / القراء في السورتين؟

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق ما يأتي:

1. بيان مدى فعالية الانسجام التداولي في السورتين الكريمتين.
2. بيان قدرة تحليل الخطاب على وصف التماسك التداولي كالسياق والمعرفة الخلفية.
3. إعادة الأهمية والحيوية للتداولية، وإبراز دورها في فهم العلاقات التي تحكم بنية النص وترابطه وانسجامه.
4. استثمار معطيات تحليل الخطاب في دراسة الانسجام التداولي لخدمة قضايا اللغة العربية، وتعلمها وتعليمها، وغيرها.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من خلال الآتي:

1. فهم انسجام السورتين من خلال السياق والمعرفة الخلفية.
2. تيسير فهم القرآن الكريم للناطقين بالعربية وبغيرها.
3. معرفة الفوارق اللغوية الدقيقة من خلال تطبيق المبادئ التداولية على السورتين الكريمتين.
4. إضفاء الحياة إلى النص القرآني، والكشف عن حقيقة بنائه، والتفاعل اللغوي معه بإيجابية.

أسباب اختيار البحث:

لقد تم اختيار البحث للأسباب الآتية:

1. كون السورتين – موضوع الدراسة – باسمين من أسماء الله الحسنى؛ وذلك من أجل شكر الله تعالى على نعمائه الظاهرة والباطنة.
2. توظيف المستوى التداولي لفهم السياق والمعرفة الخلفية في القرآن الكريم.
3. الإفادة من الدراسات اللسانية التطبيقية الحديثة في فهم القرآن الكريم.
4. خدمة تعلم اللغة العربية وتعليمها لغير الناطقين بها.

حدود الدراسة:

يتناول البحث الانسجام التداولي من خلال مبدأي: (السياق وخصائصه والمعرفة الخلفية)، في سورتي فاطر وغافر، من منظور تحليل الخطاب.

المصطلحات الواردة في الدراسة:

تحليل الخطاب Discourse Analysis: هو كيفية استعمال الناس اللغة أداة للتواصل، وكيف يؤلف المتكلم رسائل لغوية يوجهها إلى المتلقي، فيقوم هذا بمعالجتها لغوياً على نحو خاص لتفسيرها (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص : ي).

الانسجام Coherence: عرفه ديبوجراندودريسلر بأنه: يُقصد به العلاقات المنطقية التصورية التي تجعل النص مترابطاً، وإنْ خلا من بعض الروابط، مثل: بناء العبارات والجمل واستعمال الضمائر

وغيرها من الأشكال البديلة. ويعتمد المتلقي – في هذا الصدد – على علاقات داخلية وعناصر مقامية متعالقة يتم بوساطتها فهم النص (أبو غزالة، وحمد: 1999، ص11).

التداولية Pragmatics: هي دراسة اللغة من منظور المستخدمين، وخاصة الكلام الذي ينتجونه من ضمن عدد من الخيارات، والقيود التي يواجهونها في استخدام اللغة في التفاعل الاجتماعي، والتأثيرات التي يسببها استخدامهم للغة على المشاركين في عملية التواصل (كريستال: 1997، ص 301، نقلاً عن الجديع: 2014، ص 506). أو: هي القدرة على استخدام اللغة بشكل فعال من أجل تحقيق غرض خاص، وفهم اللغة في السياق (توماس، 1983: ص 94، نقلاً عن الجديع، 2014، ص 507).

منهج الدراسة:

يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي للسورتين من منظور تحليل الخطاب. وسوف نحلل السورتين تحليلاً تداولياً مقتصرين على المبدأين الآتيين: السياق وخصائصه والمعرفة الخلفية.

المبحث الثاني:

الإطار النظري وينقسم إلى مطلبين: المطلب الأول: تحليل الخطاب: تعريفه وبيان مفهوم الانسجام. والمطلب الثاني: الدراسات السابقة في مجال تحليل الخطاب.

المطلب الأول: تحليل الخطاب (تعريفه ومفاهيمه)

أولاً: تعريفه: عرّف (براون ويول) تحليل الخطاب من خلال السؤال الآتي: «كيف يستعمل الإنسان اللغة من أجل التواصل، وعلى الخصوص، كيف ينشئ المرسل رسالات لغوية للمتلقي، وكيف يشتغل المتلقي في الرسالات اللغوية بقصد تأويلها؟ (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص: ي)». من خلال هذا التعريف، نبيّن أن تحليل الخطاب لا يهتم بالجمل الصحيحة نحوياً، وإنما يهتم بالعلاقات التي تربط هذه الجمل، من خلال المشاركين في العملية الكلامية أو الكتابية.

ثانياً: مفاهيم تحليل الخطاب: هناك عدة مفاهيم دلالية وتداولية حلّلها «فان ديك» (خطابي، 2006، ص31 50–وما بعدها) وبراون ويول (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص –35 81) وغيرهم، وفيما يلي نبيّن مفهوم الانسجام والسياق والمعرفة الخلفية باختصار؛ وذلك لارتباطها بموضوع البحث.

أ- الانسجام

يحتاج الانسجام كما يقول «فان ديك»: إلى تحديد نوع الدلالة التي ستمكننا من ذلك. وهي دلالة نسبية، حتى لا نؤول الجمل أو القضايا بمعزل عن الجمل والقضايا السابقة عليها، «فالعلاقة بين الجمل محددة باعتبار التأويلات النسبية (نقلاً عن: خطابي، 2006: ص 34)». ولقد لخّص «فان ديك»: العلاقات التي تساهم في الانسجام النصي لكل مقطع، ثم العلاقات بين المقاطع. والعلاقات الأساسية قابلة للتصنيف على النحو الآتي:

1. التطابق الذاتي بين الشخص والضمير.
2. علاقات التضمن والعضوية، الجزء – الكل، ثم الملكية.
3. "الحالة العادية المفترضة للعوالم، التي يشتمل عليها الخطاب، وهو شرط معرفي، كما يقرر: "فان ديك"، ويعني به "أن توقعاتنا حول البنيات التداولية للخطاب، تحددها معرفتنا حول بنية العوالم عموماً، والحالات الخاصة للأمور أو مجرى الأحداث (نقلاً عن: خطابي، 2006، ص 35)".
4. مفهوم ذات الإطار الذي يميز معرفتنا للعالم.
5. علاقة التكرير (أو التطابق الإحالي) التي تتجسد في النص، وذلك من خلال ورودها غير مرة في النص.
6. تعالق المحمولات، أي ورود جملة أو عبارة في المقطع الأول، يكون لها صلة أو علاقة في المقاطع التالية تدل عليها كلمة ما، أو عبارة ما، مثل: أسماء الإشارة.
7. العلاقات الرابطة بين المواضيع الجديدة: علاقة الرؤية، التذكر... إلخ.

ب- السياق وخصائصه

ينبغي على محلل الخطاب كما يرى براون ويول (1983)، أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر فيه الخطاب (والسياق لديهما يتشكل من المتكلم/ الكاتب، والمستمع/القارئ/ المتلقي، والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي)؛ لأنه يؤدي دوراً فعالاً في تأويل الخطاب، بل كثيراً ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين إلى تأويلين مختلفين (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص-35 36/ خطابي، 2006، ص52). وفي هذا الصدد يرى هايمس (1964) أن للسياق دوراً

مزدوجاً إذ «يحصر مجال التأويلات الممكنة، (...) ويدعم التأويل المقصود (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 47-48/ خطابي، 2006: ص 52)».

وفي رأي هايمس أن خصائص السياق قابلة للتصنيف إلى ما يلي (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 48/ خطابي، 2006: ص 35):

1. المرسل: وهو المتكلم أو الكاتب الذي ينتج القول.
2. المتلقي: وهو المستمع أو القارئ الذي يتلقى القول.
3. الحضور: وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.
4. الموضوع: وهو مدار الحدث الكلامي.
5. المقام: وهو زمان ومكان الحدث التواصلي، وكذلك العلاقات الفيزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه... إلخ.
6. القناة: كيف تم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي: كلام، كتابة، إشارة... إلخ.
7. النظام: اللغة أو اللهجة أو الأسلوب اللغوي المستعمل.
8. شكل الرسالة: ما هو الشكل المقصود: دردشة، جدال، عِظة، خرافة، رسالة غرامية... إلخ.
9. المفتاح: ويتضمن التقويم: هل كانت الرسالة موعظة حسنة، شرحاً مثيراً للعواطف... إلخ.
10. الغرض: أي أن ما يقصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصلي.

ويشير هايمس Hymes إلى أن المحلل بإمكانه أن يختار الخصائص الضرورية لوصف حدث تواصلي خاص، بمعنى أن هذه الخصائص ليست كلها ضرورية في جميع الأحداث التواصلية، ولكن "بقدر ما يعرف المحلل أكثر ما يمكن من خصائص السياق، بقدر ما يحتمل أن يكون قادراً على التنبؤ بما يحتمل أن يقال (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 48- 49/ خطابي، 2006: ص 53)". وبالإضافة إلى تصنيف هايمس هذا، هناك محاولة أخرى قام بها لويس (Lewis 1972)، ولكن غرضه من تحديد خصائص السياق يختلف عن غرض هايمس، وهو معرفة صدق أو كذب جملة ما، فالغرض إذن منطقي. أما هذه الخصائص في نظره فهي (نقلاً عن: براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص51/ خطابي، 2006: ص 53- 54):

1. العالم الممكن: بمعنى أخذ الوقائع التي قد تكون، أو يمكن أن تكون، أو هي مفترضة، بعين الاعتبار.
2. الزمن: اعتبار الجمل المزمَّنة وظروف الزمان، مثل: اليوم، الأسبوع المقبل...إلخ.

3. المكان: اعتبار جمل مثل «إنه هنا»... إلخ.
4. المتكلم: اعتبار الجمل التي تتضمن إحالة إلى ضمير المتكلم (أنا، نحن...).
5. الحضور: اعتبار الجمل التي تتضمن ضمائر المخاطب، أنت، أنتم... إلخ.
6. الشيء المشار إليه: اعتبار الجمل التي تتضمن أسماء الإشارة (هذا، هؤلاء،...).
7. الخطاب السابق: اعتبار الجمل التي تتضمن عناصر، مثل: (هذا الأخير، المشار إليه سابقاً...).
8. التخصيص: سلسلة أشياء لا متناهية (مجموعة أشياء، متتاليات أشياء...).

من السهل ملاحظة أن هذه الخصائص متقاربة، إن لم نقل متماثلة، بحيث إن ما سماه هايمس: "مقاماً"، فصَّله لويس إلى: "زمان ومكان"، وما سماه هايمس: "موضوعاً"، قسَّمه لويس إلى "شيء مشار إليه"، و"خطاب سابق" (خطابي، 2006، ص 54).

وباختصار، حدد هايمز (1964م) نوعين رئيسين من خصائص السياق، أحدهما: له علاقة بتحديد نمط من الأحداث الكلامية، والآخر: خصائص عامة للسياق. وفيما يلي عرض موجز لهذين النوعين (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 47- 49/ خطابي، 2006: ص 297):

النوع الأول: الخصائص ذات الصلة بتحديد نمط من الأحداث الكلامية، هي:

1. الباث/ المرسل/ المتكلم/ المتحدث/ أو الكاتب، الذي يحدث القول.
2. المتلقي/ المستمع/ المستقبل/ السامع/ أو القارئ، الذي يستقبل القول.
3. المشاركون/ الأشخاص، الذين يسهمون في الحدث الكلامي.
4. الموضوع المُتَحَدَّث عنه، أو ما يسميه هايمز بمحور الحديث.
5. الظرف، أي معرفة السياق الزماني والمكاني للحدث.
6. الوضع الجسمي، إن معرفة الوضع الجسمي للمشاركين من حيث: هيئة الجسم، وطبيعة الحركة، وتقاسيم الوجه، والإشارات المصاحبة، فستكون التوقعات أكثر دقة وتحديداً للحدث التواصلي.

النوع الثاني: الخصائص العامة للسياق، هي:

1. القناة، وهي معرفة أداة التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي: من خلال اللفظ (الكلام الشفوي)، أو الكتابة، أو الإشارة، أو استعمال الدخان، إلخ.
2. الشفرة المستعملة، أي معرفة نوع الشفرة: اللغة الفصحى، أو اللهجة، أو الأسلوب المستعمل.
3. صيغة الرسالة، ما هي الصيغة المقصودة في الرسالة الكلامية/ الكتابية؟ هل هي حديث عابر غير رسمي، أم مناظرة، أم خطبة، أم حكاية شعبية، أم قصيدة شعرية، أم رسالة غرامية ...إلخ؟
4. الحدث – أي معرفة طبيعة الحدث – التواصلي الذي يمكن أن نضمن داخله نمطاً خطابياً معيناً، هكذا نرى أنه يمكن للخطبة أو الدعاء أن تكون جزءاً من حدث أكبر هو الصلاة في الجامع.

وأضاف هايمز خصائص أخرى، مثل:

1. الطابع، الذي يضمن تقييم الكلام، هل كانت الخطبة جيدة أم تفسيراً تافهاً... إلخ؟
2. الغرض، ماذا كانت الأطراف المشاركة تنوي التوصل إليه كنتيجة للحدث التواصلي؟

وكان هدف هايمز من كل هذا، هو أنه يجب أن ينظر محلل الخطاب إلى هذه الخصائص السياقية، وأن يختار منها ما يناسب الحدث التواصلي المعين، الذي يرمي التوصل إليه.

ت– المعرفة الخلفية

يقصد بالمعرفة الخلفية هو: أن المستمع/ القارئ حين يواجه خطاباً ما، لا يواجهه وهو خاوي الوفاض، وإنما يستعين بتجاربه السابقة، بمعنى أنه لا يواجهه وهو خالي الذهن. فالمعروف أن معالجته للنص المعاين تعتمد على ما تراكم لديه من معارف وخبرات سابقة، تجمعت لديه كقارئ متمرس، قادر على الاحتفاظ بالخطوط العريضة للنصوص و(التجارب) السابق له قراءتها ومعالجتها (خطابي، 2006: ص 61). ويرى بعض الباحثين أن «تمثيلات المعرفة الخلفية تتسم بأنها منظمة بطريقة ثابته كوحدة تامة من المعرفة الجاهزة في الذاكرة (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 283/ خطابي، 2006: ص 62)»، إلى درجة أن رايسباك يقرر دون تردد أن «عملية الفهم هي من عمل الذاكرة»، ومن ثم فإن: «فهم الخطاب يعد بالأساس عملية سحب للمعلومات من الذاكرة واسترجاعها، وربطها بالخطاب الذي يتفاعل معه (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 283/

خطابي، 2006: ص 62)». إن أهم المجالات التي صرفت عناية خاصة لتمثيلات المعرفة، هما مجالا: علم النفس المعرفي والذكاء الاصطناعي. ولقد حاول علماء الذكاء الاصطناعي أن يبرمجوا حاسوباً قادراً على معالجة خطابات معينة – أي فهمها وتأويلها – ولكن النتائج التي حققوها حتى الآن غير قابلة للمقارنة مع معالجة الإنسان، فإنها حققت مكاسب علمية مشجعة؛ لأن أهم عقبة تواجه هؤلاء، هي: أن ذاكرة الإنسان تتوفر على معرفة موسوعية غير قابلة للحصر، في حين أن ذاكرة الحاسوب أضعف من أن تضم هذه المعرفة الواسعة الشاملة، لذا كان الحل هو «إنتاج بنيات معرفة متخصصة للتكيف مع خطاب يتطلب نوعاً خاصاً من المعرفة (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 283–284/ خطابي، 2006: ص 62)».

استعمل الذكاء الاصطناعي مفهومي: «الإطارات المعرفية» و «المدارات» لتفسير كيفية فهم الخطاب، واستعمل علم النفس المعرفي مفهومي: «السيناريو» و«الأنساق الذهنية». ويشير «براون ويول» إلى أن تعدد المصطلحات لا يعني: «أننا أمام نظريات متنافسة؛ لأنها تهدف كلها إلى وصف الكيفية التي تنظَّم بها معرفة العالم في ذاكرة الإنسان، ثم كيف تنشّط هذه المعرفة في عملية فهم الخطاب (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص –284 293/ خطابي، 2006: ص 62–63)». إن هذه المفاهيم تساعدنا – كما ذكرا – في الإجابة عن كيفية فهم وتأويل المتلقي للخطاب، من دون أن يتبنيا هذه المفاهيم تبنياً مطلقاً، حيث نبّها كثيراً إلى مشاكلها وحدودها، مع إقرارهما بقيمتها النظرية والإجرائية (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص –284 323).

ونعني بالذكاء الاصطناعي: (أي كيفية تنظيم المعلومات في الذاكرة)، وفيه مفهومان: الإطارات المعرفية، والمدارات. إن هذين المفهومين لهما تأثيرهما البالغ على الدراسات التي تهتم بكيفية فهم الخطاب وتأويله.وعلم النفس المعرفي يمكننا من (الحصول على طرق لتصوير المعلومات المخزنة في الذاكرة، وكيفية ارتباطها بعملية تحليل الخطاب، وإن الخط المميز لهذه الأبحاث، هو: قلة تركيزها على طرق تخزين المعلومات، وتركيزها في المقابل على: كيفية استعمال المعلومات العامة في عملية التحليل في أثناء حدوثها)، وفيه مفهومان أيضاً: أولهما، السيناريوهات والمخططات الذهنية، وثانيهما، الأنساق الذهنية أوالخطاطات، ولكن اختلاف الاختصاص، وتعدد المفاهيم والمصطلحات وتداخلها وتنوعها،لايعني أننا أمام نظريات متنافسة، بقدر ما يعني إشعارات بديلة لوصف كيفية تنظيم المعلومات/ المعرفةعن العالم في ذاكرة الإنسان، وكذلك كيفية تنشيطها في عملية فهم الخطاب (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص –284 285). وفيما يلي نلخص كل مفهوم من هذه المفاهيم (براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 285 وما بعدها/خطابي، 2006: ص 312):

أ– **الإطارات المعرفية:** يعرفها منسكي بقوله: "إن معلوماتنا مخزنة في الذاكرة، في شكل بنى

مخصصة للبيانات، نسميها: "إطارات معرفية"، تمثل مواقف نموذجية، وتستعمل بالطريقة الآتية: عندما يعترضنا موقف من المواقف/ أو أمر ما، فإننا نحتاج مما هو متوفر في ذاكرتنا إلى بنية تسمى: "إطاراً معرفياً"، وهي عبارة عن إطار نتذكره، ويتم تكييفه ليتناسب مع الواقع، وذلك بتغيير التفاصيل حسب الحاجة، ... أي أنها لا تهتم بالظواهر اللغوية – (الصحة اللغوية للخطاب) – بل تتوجه نحو إيجاد طريقة لتصوير المعلومات (منسكي (Minsky) نقلاً عن: براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 285)"، وهو ما يعرف عندنا بالبلاغة العربية: "لكل مقام مقال"، فهناك عبارات للمجاملة، والثناء، والاستقبال، والوداع، والزيارة، وغيرها. وبتعبير تشارنياك: "هو بنية ثابتة للبيانات، تخص موضوعاً نموذجياً. أو: هو عملية تنسيق بين ما نسمعه وبين الإطار الذي ثبتته معلوماتنا الحاصلة"(تشارنياك (Charniak) نقلاً عن: براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 286). ويعده آخرون بأنه: أداة حاسوبية لا تقتصر على تخزين البيانات بل هي قادرة على إنجاز برامج لتنظيم عمليات البحث والاستدلال التي تتلاعب بالتصورات المخزنة (هيز (Hayes) نقلاً عن: براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 286)".

ب– المدارات: المدار، هو ترجمة لمصطلح: «Script"، والذي يعني الأحداث المميزة لسياق معين، والتي تُدرس من حيث أثرها في فهم النص أو حفظه. واختص مفهوم المدار بأنساق التعاقب الحدثي. أو: هو تحري العلاقة بين المواقف والسلوك. أو "الفعل وردة الفعل". وإذا استُعمِل في فهم النص، فإن هذا المفهوم يضم تحليلاً معيناً لعملية الفهم اللغوي، واقترح شانك تسميته: "بالتبعية التصورية". ولتمثيل معاني الجمل تمثيلاً تصوريّاً، جعل شانك لكل جملة من الجمل شبكة تبعية تصورية سماها "المخطط التصوري". ويضم هذا المخطط تصورات أو دلالات تربط بينها علاقات، تعرف: بالعلاقات التبعية. وهناك انتقاد وجه لنظرية التبعية التصورية التي نادى بها شانك عندما وضع الشرط التالي لنحوية الصياغات التصورية بقوله: "إن المخطط التصوري الذي لا يضم سوى المعلومات المنقولة عبر الجمل، لا يعد نحوياً – من وجهة نظر تصورية، أي أن الصياغة التصورية لا تعد كاملة – إلا إذا شرحت فيها كل الحالات التصورية التي يتطلبها فعل الخطاب"(شانك 1977 (Schank)، أبيلسون 1976 (Abelson)، شانك 1972 (Schank)، نقلاً عن: براون ويول، 1997م، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص –288 293). وعلى الرغم من هذا النقد العام للمبادئ النظرية التي يقوم عليها استعمال "المدارات"، فقد بيّنت بعض الأبحاث، أن معالجة المدارات بوصفها أنماطاً فعلية تنظم معرفة الناس بشتى الأنشطة الروتينية (باور وزملاؤه، 1979، نقلاً عن: براونويول. 1997: ص 293،/ وخطابي، 2006: ص 312).

ت– المخططات الذهنية، أو السيناريوهات: وضع سانفورد وجارود هذا المصطلح، للحديث عن:

المجال المرجعي الموسّع، الذي نعود إليه في تأويل النصوص المكتوبة: «إذ نستطيع أن ننظر إلى معرفتنا بالظروف المحيطة والمواقف، على أنها تمثل المخطط الذهني الذي يكمن وراء تأويلنا للنص». وهما يهدفان من ذلك إلى: «تأكيد صلاحية نظرية المخطط الذهني لأن تمثل نظرية نفسية»... وهما يؤكدان على أن نجاح عملية الفهم القائمة على المخطط الذهني تعتمد على درجة النجاعة التي يحققها صاحب النص في تنشيط المخططات الذهنية المناسبة. كما لاحظا أيضاً أن قطعة من النص لا بد أن تمثل وصفاً جزئياً محدداً لعنصر من المخطط الذهني ذاته حتى يمكن لها أن تظهر ذلك المخطط للعيان. ومن شأن هذه الملاحظات، أن تدعم وجهة نظر مفادها: أن العرض الناجع، والتقديم الموضوعي بصفة خاصة، هما اللذان يسهلان معالجة النص. ولعل من وظائف التقديم الموضوعي على مستوى النص أن ينشط لدى القارئ مخططاً ذهنياً معيناً. أي أن دعاوى سانفورد وجارود تتصل بالسهولة أو السرعة التي تتم بها معالجة نصوص قائمة على مخطط ذهني متماسك. وهما لا يقترحان أن النصوص التي لا يتوفر لها مباشرة بناء مخطط ذهني متماسك غير قابلة للمعالجة (Sanford &Garrod سانفورد وجارود. 1981م، ص 110. نقلاً عن: براونويول. 1997م. المرجعالسابق.ص 293/ وخطابي، 2006: ص 312).

ث- الأنساق الذهنية/ أو الخطاطة «Schemata» (Van Dijk فان دايك. 1981م، ص 141. نقلاً عن: براونويول، ترجمة: الزليطني والتريكي، 1997: ص 295 296-): و"تعد الأنساق الذهنية: هياكل معرفية مركبة (بل وحتى اصطلاحية أو معتادة) من المستوى العالي". أو: هي تمثل "مسرحاً للأفكار في عملية تنظيم التجربة وتأويلها (Anderson أندرسن. 1977، نقلاً عن: براونويول، ترجمة: الزليطني والتريكي، 1997:ص 295-296،/ وخطابي، 2006: ص 312.)". وهناك من يذهب إلى أبعد من هذا، فيرى أن لتلك الأنساق وظيفة حتمية تعد الفرد مسبقاً لممارسة تجربته بشكل محدد. فقد ننظر إلى التحيز العنصري مثلاً، على أنه مظهر لنمط محدد من التفكير بشأن أفراد نصادفهم لعهد قريب، فنمنحهم صفات وأفعالاً مخصوصة، على أساس نسق ذهني مسبق، رسمناه لأفراد جنس معين. وقد تكون هناك أيضاً أنساق حتمية نعود إليها، ونحن على وشك الوقوف على أصناف معينة من الخطاب... وفي الشعر العربي موضوعات عديدة، منها: الغزل، والمديح، والفخر، والهجاء، وغيره، ولكل موضوع منها معانٍ مخصصة مستعملة فيه. وعدّ علماء البلاغة العرب، أن من معايير جودة الكلام وحُسْنِه ما يلي (الخفاجي، 1952: ص 65-124، 188-189. وجاسم، 2015 أ: ص -138 142):

- ألا يعبر عن المدح بالألفاظ المستعملة في الذم، ولا في الذم بالألفاظ المعروفة للمدح، بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض.

- أن تُستعمل الكلمات الشائعة في ذلك العلم والغرض، وألا يعدل عن سواها (الخفاجي، 1953: ص 195-196).

وباختصار، يمكن اعتبار الأنساق المعرفية بمثابة الخلفية المعرفية المنظمة التي تقودنا إلى أن نتوقع أو نتنبأ بمظاهر معينة في تأويلنا للخطاب. وبالفعل نجد "تانِنTannen": يستعمل عبارة "هياكل التوقع" للحديث عن الأثر الذي تمارسه الأنساق الذهنية على تفكيرنا، كما نجد لديه أدلة على أن مثل تلك التوقعات تؤثر في نوع الخطاب الذي نقوم بإصداره (Tannenتانن. 1979م، ص 138، 1980م. نقلاً عن: براونويول، 1997، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 296).

وإذا كانت خلفيتنا المعرفية منظمة ومخزنة حسب أنساق ذهنية ما، ثابتة ومقترنة بهياكل أخرى من الأنساق الذهنية الأكثر مرونة، فإنها تمنح محلل الخطاب طريقة معينة لمعالجة ما يحصل في أثناء إصدار الخطاب وتأويله، مما لا يحصل منذ البداية في كل مناسبة. مثل: الإطارات، والمدارات، والمخططات الذهنية، فهي وسيلة لتمثيل تلك الخلفية المعرفية التي نستعملها جميعاً، ونفترض أن الآخرين قادرون على استعمالها كذلك، في أثناء إصدارنا للخطاب وتأويلنا إياه تأويلاً صحيحاً (براونويول، 1997، ترجمة: الزليطني والتريكي، ص 299). وقسّم دي بوجراندودريسلر ظاهرة التناص (الاستعانة بالمعرفة الخلفية) إلى قسمين: الأول، هو ما رأيناه في التصنيف الوظيفي السابق. والثاني، يسمى إيحاء النص (texte allusion)، ويُعرَّف بأنه: "الطرق التي نستعمل بها – أو نحيل بها إلى – نصوص معروفة" (دي بوجراندودريسلر. ص 186. نقلاً عن: خطابي. 2006: ص 314). وقد حدد مفتاح تعريفاً للتناص قائلاً: إنه «فسيفساء من نصوص أخرى، أدمجت فيه بتقنيات مختلفة/ ممتص لها، بجعلها من عندياته، وبتصييرها منسجمة مع فضاء بنائه، ومع مقاصده/ محول لها بتمطيطها، أو تكثيفها، بقصد مناقضة خصائصها ودلالتها، أو بهدف تعضيدها (مفتاح، 1985: ص121)». أضف إلى ذلك أنه اهتم بدينامية النص وبتعميق أنواع العلاقات القائمة بين نص ونص (أو نصوص أخرى)، متجاوزاً بذلك المحاكاة الساخرة التي يرى الغربيون أنها الوظيفة الأساسية التي يخدمها التناص. وباختصار، فإن «التناص لا مناص منه؛ لأنه لا فكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتوياتهما، ومن تاريخه الشخصي أي من ذاكرته، فأساس إنتاج أي نص، هو معرفة صاحبه للعالم، وهذه المعرفة هي ركيزة تأويل النص من قبل المتلقي أيضاً (مفتاح، 1985: ص123)». إذاً، ما الذي يجعل من التناص أمراً ضرورياً؟ إن جزءاً من الجواب يكمن في كونه: «وسيلة تواصل لا يمكن أن يحصل القصد من أي خطاب لغوي بدونه، إذ لا يكون هناك مرسل بغير متلق متقبل مستوعب مدرك لمراميه. وعلى هذا فإن وجود ميثاق، وقسطاً مشتركاً بينهما من التقاليد الأدبية، ومن المعاني ضروري لنجاح العملية التواصلية (مفتاح، 1985: ص134)». والتناص القرآني يوجد في السورة الواحدة(جاسم، 2015ب: ص 1361-1426)، حيث يخبرنا الله عز وجل عن موضوعات متعددة، ويلفت انتباهنا إليه؛ من أجل التذكرة، والموعظة، والعودة إلى الطريق المستقيم، وألا نغلو في ديننا وأمورنا، وأن نعترف بقدرة الخالق – جل في علاه – في كل شيء، وألا نكون قاصري الفهم والوعي والتفكير.

المطلب الثاني: الدراسات السابقة

هناك عدة دراسات تطرقت إلى موضوع تحليل الخطاب بشكل عام، والمستوى التداولي بشكل خاص. ومن هذه الدراسات ما يأتي:

ففي دراسة (لجاسم والبلوشي 2014م)، بعنوان: المستوى الدلالي في سورتي الملك والأعلى: دراسة تحليلية للانسجام من منظور تحليل الخطاب وتعليم العربية. قامت تلك الدراسة على تحليل مفهوم الانسجام الدلالي في سورتي الملك والأعلى، في ضوء تحليل الخطاب، وذلك من خلال اختيار مجموعة من المفاهيم الدلالية الآتية: الإشراك بين العناصر والجمل. وعلاقات الإجمال/ التفصيل، والعموم/ الخصوص. وموضوع الخطاب بين المشاركين. والبنية الكلية وكيفية بنائها. وأخيراً التغريض، الذي تم من خلال طرق مختلفة ومتعددة. وهدفت الدراسة إلى توظيف المستوى الدلالي في تعليم اللغة العربية للناطقين بها وبغيرها، وتيسير تعليمها لهم. وبيّنت النتائج أن المفاهيم الدلالية أعلاه، ساهمت مساهمة كبيرة في تحقيق الانسجام والترابط في السورتين، وأن العلماء العرب القدامى أسهموا في هذا المجال إسهاماً فعالاً، من خلال دراسة علوم القرآن.

وقد أجرى **(الجديع 2014م) دراسة بعنوان: الأعمال اللغوية وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها: نظرة في المنهجين القديم والحديث.** تناول فيها نظرية الأعمال اللغوية في مجال التداولية لدى أوستن Austin 1962، حيث لقي اهتماماً كبيراً من الباحثين المتخصصين؛ وذلك لأهميتها في الحياة اليومية وكثرة استخدامها عند متحدثي اللغة الأولى والثانية على حد سواء. والبحوث التي أجريت في هذه الناحية قليلة جداً إن لم نقل نادرة لدى متعلمي اللغة العربية، حيث افتقدت الدراسات العربية التي أجريت حول اكتساب اللغة الثانية إلى دراسات ميدانية فيما يتعلق بالتداولية البينية بشكل عام، والأعمال اللغوية بشكل خاص. وهدفت الدراسة إلى لفت انتباه المهتمين بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، إلى أهمية الكفاية التداولية بشكل عام، والأعمال اللغوية بشكل خاص، والمطالبة بإعطائها اهتماماً خاصاً من خلال الاستفادة من المنهجين القديم والحديث في أثناء تعليم اللغة الثانية، وذلك بزيادة وعي المتعلمين بالقدرة التداولية، وممارستها في اللغة الهدف، وتحفيز الباحثين في تعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، على إجراء دراسات ميدانية، حول اكتساب متعلمي اللغة العربية من غير الناطقين بها للأعمال اللغوية، أو حول فعالية تعليم التداولية بمنهجيها القديم والحديث.

وعرض **(خطابي 2006م) تحليلاً تداولياً لقصيدة أدونيس بعنوان: المستوى التداولي في قصيدة: فارس الكلمات الغريبة لأدونيس.** حيث ركز على المستوى التداولي من خلال المحورين الآتيين: سياق النص والمعرفة الخلفية لقصيدة أدونيس (فارس الكلمات الغريبة: أدونيس،1971)؛ لمعرفة

دورهما في التأويل، ومن النتائج التي توصل إليها الباحث ما يأتي:

- إنه يصعب الحديث عن سياق مباشر(بالنسبة للنص الشعري)، يؤطر النص: متكلماً ومتلقياً، زماناً ومكاناً، خاصة حين يتعلق الأمر بالخطاب الشعري المعاصر، على خلاف ماعليه الأمر في الخطاب الشعري القديم.

- إن المهتمين بسياق النص الأدبي يلحون على ضرورة مراعاة المسافة بين الخطاب العادي (التخاطبي خاصة) وبين الخطاب الأدبي المعتمد على التخيل، بحيث تفقد المعينات إحالتها المباشرة المحددة هوية وزماناً ومكاناً.

- إن البحث في سياق النص الأدبي ينبغي أن يعتمد فيه على النص نفسه، إذ إن هذا الأخير يبن يهذا السياق طوعاً أو كرهاً من أجل أن يحيا كنص.

- إن المعلومات الموسوعية المرتبطة بالتقاليد الأدبية، وبمنتج النص غالباً ما توجه القارئ في بناء سياق النص.

- إن سياق النص قد يكون ممتداً وراءً في اتجاه نصوص سابقة في الديوان نفسه مثلاً، وأماماً في اتجاه نصوص لاحقة في الديوان أيضاً.

- إن النص الشعري، كغيره من النصوص، تتحكم فيه المعرفة الخلفية سواء تعلق الأمر بالإنتاج أم بالتلقي.

- إن المعرفة الخلفية تساهم بشكل فعال في تكسير العلاقة المتوترة بين القارئ والنص، وبالتالي تجعله يشعر بإمكان الفهم والتأويل.

- إن النصوص المعقودة في النص المعني تغني هذا الأخير بدلالات ما كان ممكناً أن توجد لولا عقدها فيه، ولولا المعرفة الخلفية لدى القارئ.

الملاحظات على الدراسات السابقة:

- تناولت الدراسات السابقة موضوعات متعددة، كالانسجام الدلالي في القرآن الكريم، من خلال موضوع الإجمال والتفصيل، والعموم والخصوص، والبنية اللغوية، وفكرة الموضوع، وغيرها.

- وأما الأعمال الكلامية، فهدفت إلى لفت انتباه المهتمين بتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها، إلى أهمية الكفاية التداولية بشكل عام، والأعمال اللغوية بشكل خاص، والمطالبة بإعطائها اهتماماً خاصاً في أثناء تعليم اللغة الثانية، لزيادة وعي المتعلمين بالقدرة التداولية في التعليم.

- ولم تركز دراسة الكفاية اللغوية والخطابية على العناصر اللغوية فحسب بل ركزت أيضاً على العناصر اللغوية بوصفها نصوصاً ناجزة لتحقيق أغراض تواصلية في سياقها الاجتماعي والثقافي الطبيعي.
- وأخيراً تناول خطابي موضوع الانسجام التداولي في الشعر من خلال مبدأي السياق والمعرفة الخلفية ووظفهما في تحليل وفهم المعاني الشعرية.
- وتختلف الدراسة الحالية عن هذه الدراسات في أنها تتناول موضوعاً من القرآن الكريم؛ لبيان إعجازه وفهمه، ومحاولة توظيف تحليل الخطاب في فهم النص القرآني وتيسير تعلم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

المبحث الثالث: الدراسة التطبيقية

يتناول هذا المبحث مناقشة المفهومين التداوليين التاليين: السياق وخصائصه، والمعرفة الخلفية.

أولاً: السياق وخصائصه

يرى براون ويول، أنه كلما توفر لدى المتلقي معلومات عن مكونات السياق، تكون أمامه حظوظ قوية لفهم الرسالة وتأويلها، أي وضعها في سياق معين من أجل أن يكون لها معنى. ويتحتم على محلل الخطاب أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي ورد فيه جزء من ذلك الخطاب، إذ هناك بعض الوحدات اللغوية التي تتطلب معلومات عن السياق في أثناء التأويل ليتيسر فهمها، ومن هذه الأدوات الإشارية: هنا، الآن، أنا، أنت، هذا، ذاك. ومن أجل تأويل هذه العناصر، حين ترد في خطاب ما، فإنه من الضروري أن نعرف هوية المتكلم، والمستمع، والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي (براون ويول، ترجمة: الزليطني والتريكي 1997: ص 35). هذا هو المبدأ العام الذي يحدد أهمية السياق، ودوره في فهم وتأويل خطاب معين، حسب رأي خطابي (2006: ص 297). نعود الآن إلى النظر في سورة: « فاطر» باحثين عن سياقها، ارتباطاً بما لها من دور في الفهم والتأويل، أي في إدراك انسجام السورة.

1. من المتكلم: الله/ فاطر السموات والأرض.
2. من المخاطب: الخَلْق/ الناس.
3. الموضوع: سورة قرآنية كريمة.
4. الواسطة: القرآن الكريم، وهو: (كتاب مطبوع).

بالنسبة للعنصر الأول نجد أن (القرآن الكريم)، هو كلام الله، وهذا يعني أن المتكلم، هو: (الله سبحانه وتعالى)، كما أن المخاطبين المباشرين (الخلق/ الناس) جاءت أسماؤهم في السورة. وأما مكان السورة وزمانها، فهو مكة المكرمة، وزمان نزولها قبل الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة (الصابوني، مج2، 1980: 563). ونلاحظ إذاً، أن كل عناصر السياق متوفرة لدينا! ولكن هل تساعدنا على تأويل السورة؟

لنبدأ في التحليل: الله هو فاطر السموات والأرض وما فيهن، وأول آية في السورة، هي: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فلنشغل إطار «العقيدة: التوحيد الخالص لله تعالى»، لنرى النتيجة. ما دام المتكلم فاطر السموات والأرض، أي (الخالق)، فمن المنتظر أن تدور السورة حول علاقة التوحيد: تعبيراً عن وحدانيته، وتأكيداً لآيات الهيمنة الربانية على مخلوقاته، وسيطرته عليها... وهذا ما تثبته السورة. وإن أول آية تدلنا على ذلك، هي الآية الأولى من السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)﴾، ونحن نعلم يقيناً، أن الله هو الخالق، ويتمتع بقدرة عظيمة خارقة لعمل هذا الفعل وغيره من الأفعال. وهكذا ينفتح الباب أمامنا، أي أن السورة نفسها تدور حول هذه السبيل، أي توحيد الله، وإقامة البراهين الدامغة على وحدانيته، ونبذ الشرك وهدم قواعده، والحث على تطهير القلوب من رذائل الأفعال، والتحلي بمكارم الأخلاق والأعمال (الصابوني، مج2، 1980: ص 563). أما بالنسبة للزمان والمكان: – نزلت السورة قبل الهجرة النبوية، في مكة المكرمة – فهما ليس إلا إطارين خارجيين عامين، يحددان زمن النزول ومكانه، بينما في السورة معينات زمانية ومكانية لا تحمل أية إشارة إلى هذين العنصرين تحديداً. ما الحل إذن؟ تعد الآيات الأولى من أي سورة، عادة ذات أهمية بالغة في تأسيس مقام مستنبط (Leech ليتش: 1969، ص 191، نقلاً عن: خطابي، 2006: ص306). إننا نلاحظ من خلال هذه السورة، عدة سمات تمتاز بها، وفيما يلي نحاول توضيح هذه السمات، وإبرازها، لنفهم سياقها.

أ– سمة التوحيد: إن الآيات الأولى التي افتتحت بها السورة، هي:

- ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1)﴾.
- ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(2)﴾.
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)﴾.

يتضح من خلال الآيات السابقة، أن المتَحَدَّث عنه، هو: «الله سبحانه وتعالى»، أي أن الأفعال التي يقوم بها، أفعال معجزة للمخلوقات جميعاً، وهذا ما يقوم به سبحانه وتعالى، الذي هو إله قادر على فعل كل شيء. إن السمة العامة التي تمتاز بها هذه الأفعال (يزيد، يشاء، يفتح، يمسك، يرزقكم، إلخ)، هي: التوحيد، والخلق والإبداع والقوة والقدرة... إنه إله قادر على فعل كل شيء. وفي الحقيقة هناك جملة في هذه الآيات تختزل هذه الأعمال المفصلة وغيرها في السورة، هي: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(1)﴾. هذه الآيات توجد انطباعاً لدى القارئ عن المتَحَدَّث عنه أولاً، وتجعله يدرك أن العَالَمَ المتَحَدَّث عنه، والذي تخلقه السورة، هو عَالَمٌ حقيقيٌ موجودٌ فعلاً، ويتحكم فيه إله واحد أحد، قوي، ذي قدرات جبارة وخارقة، وهذا ما تشير إليه الآيات: من قدرة الله على خلق كل شيء، في السماء والأرض، ولا يعزب عنه مثقال ذرة. وهذا ما تؤكده السورة بل القرآن بأكمله؛ للدلالة على توحيد الله تعالى. إذاً، هل ستحافظ السورة على ذلك الطابع (أي طابع التوحيد والقدرة، والخلق، والهيمنة على المخلوقات، والعلم، إلخ)، لكي نعتبره مؤشراً من مؤشرات السياق الذي ينبغي أن تقرأ فيه؟ نجد أن السورة أكدت هذه السمة تأكيداً لا ريب فيه، إذ لا تخلو آية من آياتها في الإشارة إلى ذلك. وفيما يلي بعض هذه الآيات:

- ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ(9)﴾.
- ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (10)﴾.
- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (11)﴾... إلخ.

ب- وهناك أيضاً سمة ثانية تبرزها السورة، ألا وهي سمة العبادة، حيث نجدها منتشرة في السورة للدلالة على وحدانية الله، وإخلاص العبادة له. والآيات البينات دليل على تلك السمة:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (29)﴾.
- ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (30)﴾.
- ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (31)﴾...إلخ.

ت- والسمة الثالثة التي نلحظها، هي سمة التمييز والتفاضل بين المخلوقات جميعاً، وخاصة بين المؤمن والكافر، ونجد هذه في الآيات الكريمات الآتية:

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (19) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ(20) وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (21) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22)﴾...إلخ.

ث- وهناك أيضاً سمة رابعة توضحها السورة، ألا وهي: سمة الرزق/ الطعام، حيث تبيّن الآيات عظمة الخالق، وأنه المتكفل بعباده في كل الأمور. وهذه السمة، هي التي تعين الإنسان على أداء العبادات على أكمل وجه، والشكر لله على نعمائه الظاهرة والباطنة. ويلاحظ ذلك في الآيات الكريمات الآتية:

- ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(12)﴾.

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا(27)﴾...إلخ.

ج- والسمة الخامسة التي نلحظها، هي: ميراث هذه الأمة لأشرف الكتب والرسالات السماوية، وذلك بإنزال القرآن الكريم الجامع لفضائل الكتب السماوية السابقة، ثم انقسام الأمة إلى ثلاثة أنواع: المقصّر والمحسن والسابق بالخيرات. والآيات التالية خير دليل على هذه السمة النبيلة.

- ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (32)﴾... إلخ.

ح- إضافة إلى هذه السمات، هناك سمة سادسة أكدتها السورة، وهي محاربة الشرك، وهدم قواعده ورموزه، وذلك من خلال التأكيد الدؤوب على التوحيد الخالص لله. وإليكم هذه الآيات البينات:

- ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (3)﴾.

- ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13)﴾.

﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (14)﴾...إلخ.نعتقد أن هذه المؤشرات أساسية بالنسبة لسياق السورة، وهي مؤشرات يمكن أن نختزلها في: مسألة العقيدة الكبرى: التوحيد الخالص لله، والقدرة والخلق والهيمنة على المخلوقات والعلم، والعبادة، والتمييز والتفاضل، والرزق، ومحاربة الشرك، إلخ.

نستطيع أن نفهم من خلال هذا ما يلي، القضاء على شيء معين كان سائداً في معتقدات العرب في الجاهلية، وهو: «الشرك»، وتعويضه بشيء آخر، بمجيء الإسلام، وهو التوحيد والعبادة الخالصة لله عز وجل. أي تأكيد هذا الأمر، وإقراره في نفوس المؤمنين والمسلمين، وتبليغه للعالمين جميعاً. وبتعبير خطابي، «هكذا إذن يصنع النص مقامه معتمداً على نفسه، ولكن هل نقرأ النص وأذهاننا فارغة، أو أننا نقرأه ونحن مزودون بمعرفة معينة قادرة على الإفادة (خطابي، 2006: ص 308)»؟ نعتقد أن هناك سياقاً أشمل، تقرأ في ظله النصوص الأدبية عموماً، وهو ما يسمى عادة: التقليد (أو التقاليد الأدبية) الذي يعني «مجموعة من الاستراتيجيات التي تعمل على مستوى المحتوى والشكل، وتسمح للنص بأن يتعرف عليه ضمن مجموعة أخرى من النصوص تشبهه، وهكذا يستدعي مفهومات حول الجنس، والتيارات الأدبية، والأعراف، والطليعة، إلخ، متوقفة على ما إذا كان النص يتوافق مع بعض الاستراتيجيات أو أنه يخرقها» (Randall راندال. 1985. ص421. نقلاً عن : خطابي، 2006: ص 309). ليس صعباً أن نعيد هذا الكلام إلى مبدأ التشابه (خطابي، 2006: ص –57 59)، لكن الأهم من هذا، هو أن القارئ وهو يواجه نصاً ما، يفعل ذلك وهو متوفر على زاد معرفي عام عن النص الأدبي مما يسهل (يفرض) استبعادً معلومات، واستحضار أخرى؛ للتكيف مع مقتضيات النص الذي يروم فهمه. وبناء عليه، فإن "السياق بالنسبة للنص الأدبي، جهاز من المعلومات الخارج نصية، المعقودة في النص، كتقليد أدبي أو كاقتضاء سياقي" (Randall راندال. 1985:ص420، نقلاً عن : خطابي، 2006: ص 309). من خلال هذا التوضيح، كيف نوظف مثل هذه المعلومات في فهم سياق السورة التي ندرسها؟ أو: ماهي المعلومات التي تسهل مهمة القارئ وهو يواجه نصاً من هذا النوع؟

1. إن هذا النص: سورة قرآنية، (أي ترتبط بمجموعة أخرى من السور تشبهها في المضمون).
2. إن الله هو خالق الخلق أجمعين، وهو المتفرد بالعبادة، ويدعو العالمين إلى الإقرار بربوبيته ووحدانيته فقط.
3. إن هذه السورة تلح على توحيد الله، وتدعو إلى نبذ الشرك وأهله.
4. إن جهود النبي الكريم في تبليغ الدعوة للناس كافة، من أجل عبادة الله وحده لاشريك له، جعله يخوض حرباً حامية الوطيس؛ لدحر الشرك وأهله، وإخلاص العبادة لفاطر السموات والأرض وحده.
5. إن المشركين الذين لا يؤمنون بالله، يزين لهم الشيطان أعمالهم، ويصدهم عن سبيل الله.
6. الحركة والحياة هما الأصل في الكون، لا السكون والموت.

إذاً، هناك حقيقتان جوهريتان على غاية من الأهمية في هذه السورة، تعدان تنبيهاً وتوضيحاً لمن لا يعلم، وتذكيراً للذي يعلم، يمكن أن تستثمرا وتفعَّلا بعقيدة إيمانية صحيحة راسخة، وهما تفعلان فعليها ما دامتا موضوعتين وضعاً قصدياً في السورة لإدراك مغزاهما، ولإثبات التوحيد الخالص لله تعالى. وإليكم إيجازهما:

أ. الحركة، يقول تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (13)﴾. أي أن الكون مضيء دائماً، فالليل لا يغيب مطلقاً، والنهار كذلك. وبتعبير آخر، أنهما لا يختفيان عن الوجود، بل موجودان على مدار الساعة، ولكنهما يغيبان عن جزء من العالم، ويظهران للجزء الآخر. والله سخر لنا الشمس والقمر، يجريان ويتحركان لأجل مسمى. أي أن كل ما في الكون يتحرك، وليس جامداً ثابتاً، فالليل يتحرك والنهار أيضاً، والشمس والقمر والأرض، وكل ما خلق الله تعالى، فهو في حركة دائمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. أما ما يقوله بعض الناس: إن الأرض ثابتة، والشمس تدور حولها أو العكس، فلا دليل على صحته أبداً، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً؟! ولئن توقفت أي مجموعة، أو كوكب عن الحركة والدوران، لانتهى العالم بأسره، ولكن نقول ما يقوله ربنا: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (سورة يس: 40).

ب. الحياة، يقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (22)﴾.

تدل هذه الآية على أن الأصل في الكون، هو: الحياة لا الموت؛ لأن الله سبحانه وتعالى، حي قيوم، وما الموت الذي نراه بيننا إلا هو غياب الجسد وفنائه، ولكن الروح تبقى حية إلى يوم القيامة، حتى تتزوج كل روح بجسدها، وفي ذلك اليوم، تكون النتيجة: إما الفوز بالجنة، إن شاء الله تعالى، وإما العذاب المقيم في النار، والعياذ بالله منه، وهناك آيات كثيرة في هذا الخصوص، مثل:

- ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169)﴾ (سورة آل عمران: 169).

- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (93)﴾ (سورة الأنعام: 93).

- ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80)﴾ (سورة النمل: 80).

- ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ (11)﴾ (سورة غافر: 11).
- ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)﴾ (سورة غافر 46). قال الطبري في تفسير هذه الآية: إنهم لما هلكوا وغرّقهم الله، جعلت أرواحهم في أجواف طير سود، فهي تعرض على النار كل يوم مرتين «غدواً وعشياً»، إلى أن تقوم الساعة (الطبري، ج21، 2000: ص 395).

وأما الأحاديث النبوية الشريفة، فمنها: ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام: أنه كان يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال» (البخاري، 2004، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر، ص 385).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: وذاك مثل قوله: إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قام على القليب، وفيه قتلى بدر من المشركين، فقال لهم ما قال: «إنهم ليسمعون ما أقول» إنما قال: «إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق». ثم قرأت:﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ (سورة النمل: 80). ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (سورة فاطر: 22). يقول: حين تبوَّؤوا مقاعدهم من النار. وذكر عن عائشة رضي الله عنها: أن ابن عمر رفع إلى النبي – صلى الله عليه وسلم –: «إن الميت يعذب في قبره ببكاء أهله». فقالت: إنما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: «إنه ليعذب بخطيئته وذنبه، وإن أهله ليبكون عليه الآن» (البخاري، 2004، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل، ص 1000). وعن نافع، أن ابن عمر رضي الله عنهما أخبره، قال: «اطَّلع النبي – صلى الله عليه وسلم – على أهل القليب، فقال: وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فقيل له: أتدعو أمواتاً؟ فقال: «ما أنتم بأسمعَ منهم ولكن لا يجيبون». وجاء أيضاً: عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: إذا أقعد المؤمن في قبره أُتيَ، ثم شهد أن لا إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ (سورة إبراهيم: 27)... نزلت في عذاب القبر(البخاري، 2004، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، ص –383 384). وعن ابن عباس، قال: مرّ النبي – صلى الله عليه وسلم – بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسَمِعَ صوتَ إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «يعذَّبان، وما يعذَّبان في كبير»، ثم قال: «بلى. كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة»، ثم دعا بجريدة فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر منهما كسرةً، فقيل له: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: لعله أن يُخَفف عنهما ما لم تيبسا» أو إلى أن ييبسا (البخاري، 2004: كتاب الوضوء، باب من الكبائر أن لا يستتر من بوله، ص 385). وعن عبدالله قال: «قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إن لله ملائكة سيَّاحين في

الأرض، يبلِّغوني من أمتي السلام» (النسائي، 1988، ج1، ص 274، رقم الحديث 1215). وأكد ابن حجر العسقلاني (2005، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، مجلد 4، ص –168 169): إثبات عذاب القبر، وأنه واقع على الكفار، ومن شاء الله من الموحدين، وقد أخرج مسلم عن زيد بن ثابت مرفوعاً: «إن هذه الأمة تُبتَلى في قبورها». وقوله تعالى:﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ (سورة غافر: 11)، علَّق العسقلاني عليها: بأن المراد بالحياة في القبر للمسألة، ليست الحياة المستقرة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن، وتدبيره، وتصرفه، وتحتاج إلى ما يحتاج إليه الأحياء، بل هي مجرد إعادة لفائدة الامتحان الذي وردت به الأحاديث الصحيحة، فهي إعادة عارضة، كما حييَ خلق لكثير من الأنبياء لمسألتهم عن أشياء ثم عادوا موتى، مثل: (قصة سورة البقرة، والرجل الذي أماته الله مائة عام، ويونس عليه الصلاة والسلام)، وفي هذه الشواهد عبرة، لمن أراد أن يتذكر أو أراد خشوعاً. ربنا زدنا علماً يا أرحم الراحمين. إذاً، نستطيع أن نؤكد الآن، هذه الحقيقة الجلية الواضحة تأكيداً لا مجال فيها للشك، من خلال ما أثبتناه من الآيات والحكمة، من أن الحركة والحياة هما الأصل في الكون، لا السكون والموت. فالحياة في القبر، حياة أخرى من نوع خاص، ليست كالحياة التي نعرفها، والله أعلم. وإن الوظيفة التي تقوم بها السورة، هي وضع القارئ في الجو العام للقرآن الكريم، أي أن نقدم عنصراً من عناصر إطار القراءة. ولكن القارئ المتفطن لا بد منتبه إلى أن هذا التقديم مجرد تحصيل حاصل. ومع ذلك لا يمكن أن ننكر التأثير الذي يمكن أن يمارسه في القارئ الذي تصده النصوص باحثاً عن بصيص ضوء ينير له سراديبها ومتاهاتها، حسب تعبير خطابي (2006: ص 310).

إن القارئ المعني بهذه الرسالة، هو القارئ النموذجي – بتعبيرأمبرطو إيكو – أو الضمني في اصطلاح ليتش(خطابي، 2006: ص 310). هذا القارئ (قد) يملك أيضاً معرفة محلية مرتبطة بالقرآن الكريم، مثلاً، سبق له أن اطلع على التفاسير والشروح للقرآن الكريم من أجل فهمه فهماً سليماً. إننا نعتقد جادين، أن هذه المعارف لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تلغى من ذاكرة المتلقي، وهو يقرأ سور القرآن الكريم (دون أن يعني هذا أنها توظف بشكل مباشر إسقاطي على النص)، حتى إنه يجوز القول: إن لدى هذا المتلقي إطاراً اسمه: «إطار فاطر السموات والأرض/ خالق/ مبدع». وهذا يذكرنا بآيات من سور سابقة ولاحقة، لها صلة بالسورة موضوع البحث. يقول تعالى:

- ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (سورة الأنعام: 14).
- ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة الزمر: 46).

- ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (سورة الشورى: 11).

بل إن السور السابقة أو اللاحقة «لسورة فاطر» يمكن أن تعد هي أيضاً مكوناً من مكونات سياقة، بناء على أن كثيراً من الآيات تتشابه مع سورة فاطر، وهذه بعض الآيات:

- ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (سورة الحج: 75).
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (3)﴾ (سورة الرعد: 2–4).
- ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة الزمر: 75).
- ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (61) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)... هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)﴾ (سورة غافر: –61 67).

يتضح لنا من خلال هذه الآيات، هل يعني هذا، أن سياق السورة سياق ممتد (متواصل/ مستمر) وراء وأماماً (سابقاً للسورة ولاحقاً لها)؟ هذا ما تؤكده الآيات والسور التي تسبق السورة وتتلوها، بحيث نجد بعض الآيات السابقة واللاحقة للسورة تؤسس لفهم السياق وتأويله. ومن خلال ما تقدم يمكن الوصول إلى ما يأتي: –1 إن النص القرآني يصنع سياقه التأويلي بنفسه، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً في معظم الأحيان. ونجد مصداق ذلك فيما فعله ابن كثير، عندما فسّر القرآن بالقرآن، وإن لم يجد ما يفسر به الآية، التفت إلى الحديث الشريف، أو الشعر، إلخ. –2 إن سياق السورة سياق ممتد (متواصل/ مستمر)، أي أنه مرتبط بما قبل السورة وبما هو بعدها. وبتعبير آخر، يعود إلى الوراء وإلى الأمام، لكي يزيدها توضيحاً وبياناً ودلالة، إلخ.

ثانياً: المعرفة الخلفية (استعمال معرفة العالم)

يرى بروان ويول: « أن المعرفة التي نملكها – كمستعملي لغة ما – عن التفاعل الاجتماعي عن طريق اللغة ليست إلا جزءاً من معرفتنا الاجتماعية والثقافية العامة». وهذه المعلومات/ المعرفة العامة

عن العالم، هي أساس هام لفهمنا للخطاب، ولكل جوانب خبراتنا الحياتية (براون ويول، 1997، ترجمة الزليطني والتريكي، ص 279- 282/ وخطابي، 2006: ص311- 312). وقد لاحظ دي بوجراند: «أن مسألة كيفية معرفة الناس بما يجري داخل نص، هي حالة خاصة من مسألة كيفية معرفة الناس بما يجري في العالم بأسره». أي أن الإنسان يمتلك معلومات موسوعية هائلة، تساعده على فهم الخطاب، من خلال التجارب السابقة، والخبرات العامة، وغيرها من المعلومات الأساسية المتوفرة لديه.لكن السؤال الذي ينبغي أن نسأله، هو: كيف نتمكن من تنظيم هذه المعلومات، والاقتصار على توظيف قدر محدود منها عند الحاجة؟ (De Beaugrande دي بوجراند. 1980م. ص 30. نقلاً عن: براون ويول، ترجمة: الزليطني والتريكي، 1997: ص 279).

في الحقيقة، حصلت عدة محاولات لتقديم تصورات شائعة أو نموذجية حول: "معلوماتنا عن العالم"، كأساس لتأويل الخطاب وفهمه فهماً صحيحاً. وهذه التصورات مستعملة في المناهج النفسية والحاسوبية لفهم الخطاب، وخاصة لتفسير نمط المعلومات التي يمكن توقعها، أو التنبؤ بها، والتي بإمكان الكاتب/ المتكلم/ المرسل، افتراض توفّرها لدى السامع/ المستمع/ المتلقي، كلما تمّ وصف موقف معين (براون ويول، ترجمة: الزليطني والتريكي، 1997: ص 282). ومثال ذلك، أن ملكاً دعا شاعراً لمأدبة الطعام، فقال الملك للشاعر: لما دعاه لتناول الطعام: "وَ"، فأجابه الشاعر قائلاً: "إنَّ". ولم يتكلما ببنت شفة بعد هذين الحرفين. وكل منهما فهم الرسالة ووعاها جيداً. فالملك كان يعني بقوله ذاك، الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ...﴾ (سورة الشعراء: 224)، وكذلك الشاعر كان يعني الآية القرآنية الكريمة أيضاً: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ (سورة النمل: 34).

وكلما كانت الخلفية المعرفية منظمة ومخزنة حسب أنساق ذهنية ما، ثابتة ومقترنة بهياكل أخرى من الأنساق الذهنية الأكثر مرونة، فإنها تمنح محلل الخطاب طريقة معينة لمعالجة ما يحصل في أثناء إصدار الخطاب وتأويله، مما لا يحصل منذ البداية في كل مناسبة. مثل: الإطارات، والمدارات، والمخططات الذهنية، فهي وسيلة لتمثيل تلك الخلفية المعرفية التي نستعملها جميعاً، ونفترض أن الآخرين قادرون على استعمالها كذلك، في أثناء إصدارنا للخطاب وتأويلنا إياه تأويلاً صحيحاً (براون ويول، ترجمة: الزليطني والتريكي، 1997: ص 299).

ويتركز تحليلنا في هذا القسم، على ثلاثة أسئلة:

1. ما الأمور/ القضايا التي حوتها سورة «غافر»؟
2. لماذا هذه الأمور/ القضايا بالذات؟
3. هل هذه الأمور/ القضايا تنسجم مع مقصدية الخالق والسورة أولا؟

فيما يخص السؤال الأول، هناك ثلاثة أمور/ قضايا تبرزها السورة، وهي:

1- أمور العقيدة: «الحق والباطل»، و«الهدى والضلال»، يقول تعالى:

- ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (2) غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (3) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (4) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (5)﴾.

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26) وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (27) وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (28)﴾.

تتحدث هذه الآيات عن التوحيد الخالص لله تعالى، بذكر صفاته وأفعاله، وبيان آياته العظمى، ومجادلة الكافرين فيها. وتشير إلى قصص الأنبياء، وذلك لتثبيت قلب النبي – عليه الصلاة والسلام – للمضي قدماً في دعوته، وعدم التباطؤ فيها، وأن الله مظهر دينه ولو كره الكافرون. وأن المعركة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ونرى أن جو السورة مشحون بطابع العنف والشدة، وكأنها معركة حامية الوطيس، وتنتهي النتيجة إلى مصرع الطغاة، من قوم نوح، وعاد، وثمود، ومن جاء بعدهم، وكيف أن الله عاقبهم عقاباً لم يفلت منه أحد إلا من آمن به. كما نلاحظ في السورة الحديث عن قصة الإيمان والطغيان، ممثلة في دعوة موسى – عليه الصلاة والسلام – لفرعون المتكبر الجبار، الذي يريد أن يقضي على موسى وأتباعه خشية انتشار الإيمان بين ظهرانيهم، ومن ثم ظهور مؤمن آل فرعون الذي لم يكن له ظهور من قبل، ودافع عن موسى – عليه الصلاة والسلام – وعن دعوته الصحيحة، وصدع بالحق أمام الكافرين لينتهوا عن غيهم وطغيانهم.

2- مشاهد الآخرة وأهوالها: إن الآيات التي تحيلنا إلى عالم الآخرة، تشير إلى الدلالتين الآتيتين:

- دلالة وقوف العباد للحساب. قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (16) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (17) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (18)﴾.
- دلالة الجزاء الذي يتعرض له الخلق. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ

(40)... النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)... ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ (73) مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (74)﴾.

تتحدث هذه الآيات عن مشاهد الآخرة وأهوالها، وتصف الناس الذين يقفون للحساب أمام الجبار المتكبر، وترى على وجوههم الرهبة والخشوع، والقلوب لدى الحناجر تكاد تتفطر؛ لشدة الفزع والخوف العظيم من ذلك الموقف المهيب، واليوم العبوس القمطرير، ومن عمل صالحاً نجا، ومن عمل سوءاً هوى في ذلك اليوم المشهود.

3- الآيات الكونية: إن الآيات التي تتحدث عن القضايا الكونية، تراكم الدلالتين الآتيتين:

- بيان عظمة الخالق، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ (58)...هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (67)﴾.
- الدلالة على وحدانية الخالق، قال تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (65) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (66)﴾.

تبرز هذه الآيات عظمة الخالق ودقة صناعته، ولطفها، والإشادة بوحدانيته وجلاله، وعلى الرغم من أن بعض الناس مشرك بالله وكافر بآياته، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالبصير والأعمى، فالمؤمن على بصيرة ونور من ربه، والكافر يتخبط في الظلام والطغيان.

تذكرنا هذه الآيات بقصص الأنبياء السابقين لنبيِّنا محمد – عليه الصلاة والسلام – مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، والأحزاب، وغيرهم، وأن الأنبياء عانوا معاناة شديدة في سبيل دعوة قومهم للحق المبين، ولاقوا أشد أنواع العذاب، فهذه القصص تثبت قلب النبي – صلى الله عليه وسلم – وتؤنسه، وتذكره بما لاقاه إخوانه من الأنبياء السابقين – عليهم الصلاة والسلام – أجمعين. وهذه سبيل القوم المجرمين الذين يصدون عن سبيل الله تعالى بغير الحق، وأن ما يحصل لك يا محمد – عليه الصلاة والسلام – فقد حصل لمن سبقك من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – فعليك بالصبر، والتحمل، لما تلاقيه من تعنت وجبروت من الناس الكافرين والمشركين، وتحلى بالصبر والحكمة والعزيمة، واصدع بأمر الله، وخاطب الناس بالحسنى؛ لعلهم يرجعون إلى الصواب، وأن الله سبحانه وتعالى لا يريد ظلماً للعباد، بل يريد هدايتهم؛ لأنه غافر للذنوب والزلات، وقابل للتوبة والأعذار من

عباده، وما يعبأ بهم ربهم لولا دعاؤهم، فهذه القصص السابقة نستخلص منها ما يأتي:

1. الصبر على الدعوة إلى دين الله تعالى، وإن تعرض لإيذاء الناس.
2. هدم الشرك وأعوانه وأركانه.
3. التذكير بآيات الله تعالى، من خلق السموات، والأرض، والناس، والليل، والنهار، والجنة، والنار، وغيرها من المخلوقات.
4. التذكير بعذاب الله يوم القيامة.

وتذكرنا قصة مؤمن آل فرعون بقصة مؤمن آل ياسين، وقصة أبي بكر الصديق مع النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وما لاقاه من ظلم قريش، وعذابهم، وغير ذلك. ونؤمن إيماناً كلياً، بأن الخالق – سبحانه وتعالى – لم يورد هذه الآيات إيراداً عفوياً، بل لجأ إلى ذكرها لتنبيه الغافلين عنها، بأنه الملك الواحد القهار المهيمن المسيطر على كل شيء، في السماء والأرض، وأن المخلوقات جميعاً تحت قبضته، وعنايته، ولطفه، فمن أحسن فلنفسه، ومن أساء فعليها. وتوظف هذه السورة، الأنواع/ الأنماط الثلاثة للنصوص، التي أشرنا إليها آنفاً (دي بوجراند، 2007: ص 40–42، 415 وما بعدها)، الوصفي، ويتجلى من الآية: –1 22، والقصصي/ السردي، ويتجلى من الآية: –23 34، والجدالي/ الحجاجي، ويتجلى من الآية: 35 – 85. وعلى الرغم من وجود تداخل فيما بينها، فهي تبدو واضحة في هذه السورة الكريمة. كما يمكننا أن نوظف مفهوم الأنساق الذهنية/ الخطاطة، وهذا المفهوم يتناول الأسلوب الذي يستخدمه الله – عز وجل – مع الكافرين والمكذبين، وبيان مقدرة الله على هلاكهم مهما تعاظمت قوتهم وتجبرهم على عباده المستضعفين في الأرض. وأن الله غالب على أمره مهما تمادى الطغاة في الفساد والعصيان والصد عن سبيل الله.

وفيما يتعلق بالسؤال الثاني، لماذا هذه الأمور/ القضايا بالذات؟ إن الذي يفيدنا هنا هو أن الله – سبحانه وتعالى – وظف السورة لكي تثبِّت مبادئ العقيدة الصحيحة الخالصة، والإقرار بوحدانية الخالق، وعدم الشرك به، وأنه الخالق للكون، والغافر لعباده، والقادر عليهم، والتذكير بعذابه وعقابه في الدنيا والآخرة، وبيان آياته الكونية في الآفاق، للدلالة على تفرده بالكون، وعظمته، وقدرته، وهيمنته. إضافة إلى هذه الأمور، نجد جدالاً بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، وفيه إشارتان، أولاهما: إلى فرعون ومؤمنه وموسى – عليه الصلاة والسلام –والثانية: إلى محمد –عليه الصلاة والسلام –. والسورة تعلمنا بأن مؤمن آل فرعون يواجه تعنت فرعون، وإصراره على معاقبة موسى وقومه، ويدعو إلى طردهم؛ لكيلا يبدلوا دينهم، أو أن يظهروا في الأرض الفساد. ونجد لهذا المخطط الذهني/ السيناريو المشابه، صدى في سيرة النبي – عليه الصلاة والسلام – متجلياً في محاربة قومه له، واتهامهم إياه بأنه شاعر، ومجنون، وساحر، وغير ذلك من الأوصاف التي نعتوها إياه؛ حتى لا يفسد دين آبائهم وأجدادهم...

وفي هذا تشابه كبير بين ما واجهه كل من موسى ومحمد – عليهما الصلاة والسلام – في بداية دعوتهما من تعنت وتشدد وتنكيل. وقد بلغ هذا أشده مع النبي – عليه الصلاة والسلام – عندما أخرجه قومه من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة؛ من أجل المحافظة على دين آبائهم وأجدادهم، ومعتقداتهم الباطلة والفاسدة، التي لم ينزل الله بها من سلطان. ويظهر التحدي الأكبر للكافرين والمجرمين، في أن أمر الله إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون. ويبدو هذا واضحاً في الآيات التالية: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (62) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (63)... هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (68)﴾. أي أن الله – عز وجل – خالق كل شيء، وهو يحيي ويميت، بيده الأمر، لا إله إلا هو فأنى تؤفكون!

ومما تجدر الإشارة إليه، أنالله – سبحانه وتعالى – استعمل وسيلتين مقنعتين لإنزال العقوبة على الكافرين، وقد استثمرنا للوصول إلى هذه الإحالة دلالتين:

- بيان آيات الله في الآفاق لعلهم يهتدون بها. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (81)﴾.
- عدم فائدة الإيمان عند معاينة العذاب، ووقوعه على الناس.﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ(85)﴾.

من خلال هاتين الدلالتين، تصل السورة إلى مبتغاها، وهي محاربة الكفر، وتطهير قلوب الناس منه، وقطع دابر الكافرين، والدعوة إلى التوحيد الخالص لله، ولكن كيف؟يكون هذامن خلال ما يأتي:

- هلاك المجرمين والمكذبين والمعاندين والمكابرين.
- نجاة المؤمنين والموحدين من عذاب الله.

إن التوحيد يلغي الشرك ويهدمه، ويقطع دابره، ونعتقد أن هذا المعنى هو الذي يقصد الشارع الكريم الوصول إليه، لكي يهتدي الناس إليه، وأن يكونوا على بصيرة من أمرهم، وهذا هو الهدف الأسمى للقرآن الكريم.

وأما بالنسبة للسؤال الثالث، فهو: هل هذه الأمور/ القضايا تنسجم مع مقصدية الخالق والسورة أو لا؟

إن الآيات التي نشطتها تلك الإشارات والدلالات، تخدم مقصد الخالق والسورة، وهي بهذا المعنى: منسجمة معهما غاية الانسجام، وقد تم توظيفها في خدمة السورة توظيفاً بديعاً، من خلال شحنها بدلالات يعبر عنها بطريقة واضحة، تاركة للقارئ حرية الاستنتاج، والتفكير في مخلوقات الله، داعية إياه إلى التساؤل عن الغرض من ذكر آيات بعينها في السورة. إن هذه الطريقة تسمح للقارئ بأن يحسب أن هناك هدفاً نبيلاً في السورة، يؤسس إلى الانصياع لقدرة الله، وعظمته، والقبول بأمر دعوته، والدخول

في دينه الجديد، الذي ارتضاه لنا، ويدعونا إلى توحيده، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له. ويبقى أن نذكر، أن عنوان السورة هو: «غافر»، وقد تكرر الاسم طوال السورة، متقاسماً – مع: الله، والخالق، والرب، وهو، والقهار، وغير ذلك من أسماء الله الحسنى – الضمائر المحيلة (خطابي، 2006: 24 25–)، محاولاً أن يؤسس إلى إعلان كلمة التوحيد، ونبذ الشرك وأهله، والتمسك بالعقيدة الصحيحة والثابتة، وأن الله هو مالك الملك، وهو القاهر فوق عباده، ولا رب سواه، وإياه نعبد، له الدين الخالص، بديع السموات والأرض وما بينهما، كل ذلك يدعونا إلى أن نفكر ملياً، وأن ننصاع إلى أمره تعالى، ونؤمن به، ونتوكل عليه، فهو الرازق، والمحيي والمميت، وله الأمر من قبل ومن بعد، وهو الرحمن الرحيم، والغفور الودود، والتواب الرحيم، وذو القوة المتين، مهلك الجبابرة والأباطرة، ومدخل المؤمنين في جنانه، والكافرين في نيرانه، فلمن يكون التوحيد والملك إذاً؟ لله الواحد القهار.

ولقد سميت السورة باسم من أسماء الله الحسنى: «غافر»، للدلالة على قدرة الله على عذاب الكافرين، ومغفرة الذنوب للمؤمنين ومن تاب من الكافرين، ومن دخل في دين الله، وآمن به. وإن دلالة هذا الاسم دلالة قوية، إذ تأتي من القوة والعظمة والهيمنة، ولا يغفر الذنوب والزلات إلا من كانت بيده القوة وأسبابها، ولهذا ترشدنا السورة إلى أن الله – سبحانه وتعالى – قوي جبار متكبر، ومع ذلك، فإنه رحمن رحيم، غافر للذنوب، وغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً، ويقبل توبة عباده إذا رجعوا إليه، ويا لها من مغفرة ورحمة، ويفرح بها الله؛ لأن عبده اعترف بذنبه، وتاب وعاد إليه، فهو ربنا، وخالقنا، ومعلمنا الخير، ومحيينا، ومميتنا، والقادر على كل شيء، فأين تذهبون يا عباد؟ أنا ربكم الأعلى، لا رب سواي، عودوا إليَّ، فأنا الرحمن الرحيم، غافر الذنوب والخطايا، وقابل التوبة منكم، ومكفر عنكم سيئاتكم، فمن يجيركم من عذاب الهون؟! والجواب يكمن في أنه: غافر الذنب وقابل التوب. إن المعلومات السابقة لم نفرضها على السورة فرضاً، وإنما السورة هي التي أثارتها بعقدها إشارات واضحة وكنايات بيِّنة في نسيجها، وهي كما أشرنا سالفاً آيات تنسجم مع مقصدها، ومع الدلالات التي تود إبلاغها إلى القارئ، ومن ثم تضمن حداً من المعارف المشتركة بينها وبين القارئ، فإذا كان القارئ يقرأ بذاكرته، فإن للسورة أيضا ذاكرة لا تستطيع الفكاك عنها مهما حاولت. لذلك يعد التناص: «وسيلة تواصل لا يمكن أن يحصل القصد من أي خطاب لغوي بدونه، إذ يكون هناك مرسل غير متلق متقبل مستوعب مدرك لمراميه. وعلى هذا فإن وجود ميثاق، وقسطاً مشتركاً بينهما من التقاليد الأدبية، ومن المعاني ضروري لنجاح العملية التواصلية» (مفتاح. 1985: ص 134). ونرى أن التناص وظّف هنا بطريقة عبقرية، تدعونا إلى التفكر، والتأمل، والتمسك بالتوحيد الخالص لله، فالله منزل الكتاب، وغافر الذنوب، ورازق العباد، ومهلك الجبابرة والأباطرة والظالمين، مثل: قوم نوح، وعاد، وثمود، وفرعون، والأحزاب، وغيرهم، وخالقنا من تراب، ثم من نطفة، فعلقة، فمخرجنا طفلاً، ومحيينا ومميتنا، وإليه مآلنا، كل ذلك يجعل السورة مرتبطة ببعضها بعضاً، من خلال التناص بين المرسل والمتلقي (عموماً) الذي آمن بالله رباً، وبمحمد – صلى الله عليه وسلم – نبياً ورسولاً، وبالقرآن الكريم كتاباً منزلاً من الله العزيز الحكيم.

نتائج البحث

من خلال ما سبق عرضه بالتفصيل، نحاول إيجاز النتائج فيما يأتي:

1. خصائص السياق: يتضح لنا سياق سورة فاطر من خلال ما يلي: أ- معرفة المتكلم (وهو الله عز وجل)، ب- ومعرفة المخاطبين بالنداء الإلهي (وهم الناس)، ت- وموضوع الخطاب (وهو سورة فاطر)،ث- والواسطة (هو القرآن الكريم/ كتاب مطبوع)، ج- وزمان ومكان السورة (قبل الهجرة إلى المدينة المنورة من مكة المكرمة).

2. نوع السياق: إن السياق في السورة سياق ممتد متواصل مستمر (سابق ولاحق)، بمعنى أن السورة تتصل آياتها بما قبلها من السور، وبما بعدها، ولذلك فإن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، من خلال عرض الآية على ما سبق من آيات أو ما يتلوها، لتُوضَّح وتُفهَم فهماً سليماً.

3. المعرفة الخلفية: تتضح المعرفة الخلفية في سورة غافر من خلال المعلومات الآتية:

أ. الأمور التي تناولتها هي: العقيدة (الحق والباطل، والهدى والضلال)، ومشاهد الآخرة وأهوالها (الحساب والجزاء)، والآيات الكونية (خلق السماء والأرض وغيرهما). ب- وتحدثت السورة عن هذه الأمور لكي تُثَبِّت العقيدة السليمة عند الناس الذين دخلوا في الدين الإسلامي الجديد، والإقرار بوحدانية الخالق عز وجل، ونبذ الشرك وتركه والالتجاء إلى الله جل وعلا. ت- ويبدو لنا انسجام هذه الأمور مع مقصد الخالق سبحانه وتعالى في بيان وحدانيته، وقوته، وعظمته، وجبروته، وقدرته على كل شيء.

التوصيات البحثية

من خلال عرض هذه الدراسة التحليلية للسورتين، نود أن نقدم التوصيات الآتية:

1. توظيف المستوى التداولي في تعليم اللغة العربية للناطقين بها وبغيرها، لفهم الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم من خلال السياق والمعرفة الخلفية.

2. إجراء دراسات على الحديث النبوي الشريف اعتماداً على مبدأي السياق والمعرفة الخلفية، لتوظيفها في تعلم اللغة العربية وتعليمها للناطقين بها وبغيرها.

3. إجراء دراسات على الشعر العربي.

4. إجراء دراسات على النثر بمختلف أنواعه: القصة، والمسرحية، والمقالة، والرواية، وغيرها من الأنواع الأدبية.

الخاتمة

ناقشنا في هذا البحث، موضوع الانسجام التداولي في سورتي: « فاطر وغافر »، من خلال المفهومين الآتيين: السياق، والمعرفة الخلفية. تمّ السياق بين الأحداث الكلامية، من خلال: المرسل، والمتلقي، والمشاركين، والموضوع المتحدث عنه، ومعرفة الزمان والمكان، واللغة المستخدمة، ومعرفة الصيغة العامة للرسالة، وغيرها. وكلما توفر لدى المتلقي معلومات عن هذه المكونات، تكون أمامه حظوظ قوية لفهم الرسالة وتأويلها، ووضعها في سياقها الصحيح. وامتاز سياق سورة: «فاطر»، بعدة سمات، هي: التوحيد، والعبادة، والتمييز والتفاضل، والرزق، وميراث هذه الأمة لأشرف الكتب والرسالات السماوية، ومحاربة الشرك، وهدم قواعده ورموزه. وهذه المؤشرات (السمات) أساسية بالنسبة لسياق السورة، وهي مؤشرات يمكن أن نختزلها في مسألة العقيدة الكبرى: التوحيد الخالص لله. كما تبرز السورة حقيقتين جوهريتين على غاية من الأهمية، هما: الحركة والحياة، وهما الأصل في الكون، لا السكون والموت. ونستنتج أيضاً: أن النص القرآني يصنع سياقه التأويلي بنفسه، فالقرآن يفسر بعضه بعضاً في معظم الأحيان. كما أن سياق سورة «فاطر»، سياق ممتد (متواصل/ مستمر)، أي أنه مرتبط بما قبل السورة وما بعدها. أما المعرفة الخلفية (استعمال معرفة العالم): فهي أساس هام لفهمنا للخطاب، ولكل جوانب خبراتنا الحياتية، والتي يمكن توقعها، أو التنبؤ بها، وبإمكان المتكلم، افتراض توفّرها لدى المتلقي، كلما تمّ وصف موقف معين. وقد تم توظيف اختصاصيين أساسيين تكفلا بمهمة تمثيل المعرفة الخلفية، وهما: أولاً، الذكاء الاصطناعي، وفيه مفهومان: الإطارات المعرفية، والمدارات. وثانياً، علم النفس المعرفي: وفيه مفهومان أيضاً: هما، السيناريوهات أو المخططات الذهنية، والأنساق الذهنية أو الخطاطات. وحصل التناص في سورة «غافر» بين المرسل والمتلقي، في الأمور الآتية: أمور العقيدة، ومشاهد الآخرة وأهوالها، والآيات الكونية؛ وذلك لبيان عظمة الخالق، وللدلالة على وحدانيته. وأخيراً، نهيب بالقائمين على تعليم اللغة العربية لأهلها ولغيرهم، والمهتمين بها، أن يوظفوا المستوى التداولي في تعليمها، لتوضيح الانسجام في العبارات والتراكيب والآيات؛ ولبيان مقاصدها العلنية والخفية، الذي تقوم عليه دراسة البلاغة، ليظهر من خلاله ربط النص ربطاً محكماً، قائماً على الفهم التام للسياق من خلال المعرفة الخلفية بالمعاني والتعابير والتراكيب المتضمنة في النص. والله نسأل أن يزيدنا من علمه، إنه جواد كريم.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- أبو غزالة، إلهام وحمد، علي خليل (1999م). مدخل إلى علم لغة النص– تطبيقات لنظرية روبرت ديبو جراند وولفغانغ دريسلر. الطبعة الثانية، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
- أدونيس، على أحمد سعيد (1971م). الآثار الكاملة. بيروت: دار العودة. ديوان: أغاني مهيار الدمشقي، قصيدة: فارس الكلمات الغريبة، لبنان.
- البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (2004م). صحيح بخاري ومعه من هدي الساري شرح غريب صحيح بخاري. الطبعة الأولى، بيروت: دار المعرفة، لبنان.
- براون،ج. ب. ويول،ج. (1997م). تحليل الخطاب. ترجمة: محمد لطفى الزليطني ومنير التريكي. الرياض: جامعة الملك سعود– النشر العلمي والمطابع، السعودية.
- جاسم، جاسم علي (2015م). المهارات اللغوية ومعايير جودتها. الطبعة الأولى، جدة: دار أمجاد حنين للنشر والتوزيع، السعودية.
- جاسم، جاسم علي (2015م). الاتساق النحوي في القرآن الكريم من منظور علم اللغة النصي. منشور، مجلة جامعة القصيم (العلوم العربية والإنسانية)، المجلد الثامن، العدد الثالث،السعودية.
- جاسم، جاسم علي، والبلوشي، عبد الرحمن بن فقير الله (1435هـ – 2014م). الاتساق المعجمي في سورتي الملك والأعلى: دراسة تحليلية في ضوء علم اللغة النصي. منشور، مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، مكة المكرمة، العدد الخامس، السعودية.
- جاسم، جاسم علي، والبلوشي، عبد الرحمن بن فقير الله (1436هـ – 2015م). المستوى الدلالي في سورتي الملك والأعلى: دراسة تحليلية للانسجام من منظور تحليل الخطاب وتعليم العربية. منشور، مجلة مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية، مكة المكرمة، العدد السادس، السعودية.
- جاسم، جاسم علي، وعثمان، عبد المنعم حسن الملك (2013م). طرق تدريس اللغات الأجنبية. الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة الرشد، السعودية.
- جاسم، جاسم علي، وعثمان، عبد المنعم حسن الملك (2013م). مدخل إلى علم اللغة التطبيقي. الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة الرشد، السعودية.

- جاسم، جاسم علي، وعثمان، عبد المنعم حسن الملك (2013م). قضايا ومشكلات في علم اللغة التطبيقي وتعلم وتعليم اللغات. الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة الرشد، السعودية.

- جاسم، جاسم علي (2001م). في طرق تعليم اللغة العربية للأجانب. الطبعة الثانية، كوالا لمبور: إيه إيس نوردين، ماليزيا.

- الجديع، سعد (1435هـ .2014م). الأعمال اللغوية وتعليم اللغة العربية للناطقين بغيرها: نظرة في المنهجين القديم والحديث. منشور، أعمال مؤتمر: اتجاهات حديثة في تعليم العربية لغة ثانية. معهد اللغويات العربية، جامعة الملك سعود. الرياض: دار جامعة الملك سعود للنشر، السعودية.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (2005م). فتح الباري بشرح صحيح البخاري. اعتنى به: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. الطبعة الأولى: الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، السعودية.

- خطابي، محمد (2006م). لسانيات النص مدخل إلى انسجام النص. الطبعةالثانية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، المغرب.

- الخفاجي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان. (1952م). سر الفصاحة. صححه وعلق عليه: عبد المتعال الصعيدي. مصر: مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده، مصر.

- دي بوجراند، روبرت (2007م). النص والخطاب والإجراء. ترجمة: تمام حسان. الطبعة الثانية، القاهرة: عالم الكتب، مصر.

- الصابوني، محمد علي (1980م). صفوة التفاسير. الطبعة الأولى، بيروت: دار القرآن الكريم، لبنان.

- الطبري، محمد بن جرير (2000م). جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق: أحمد محمد شاكر. الطبعة الأولى، بيروت: دار المعرفة، لبنان.

- مفتاح، محمد. (1985م) تحليل الخطاب الشعري: استراتيجيةالتناص. بيروت: دار التنوير، لبنان.

- من،فولفجانج هاينه وفيهفيجر، ديتر (1999م). مدخل إلى علم اللغة النصي. ترجمة: فالح بن شبيب العجمي. الرياض: جامعة الملك سعود- النشر العلمي والمطابع، السعودية.

- النسائي، أحمد بن شعيب بن علي بن سنان (1988م). صحيح سنن النسائي. صحح أحاديثه: محمد ناصر الدين الألباني. الطبعة الأولى، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، السعودية.

مراجع أجنبية

- Abelson, R. 1976. <Script Processing in Attitude Formation and Decision-Making> in (eds.) J. S. Carroll & J. W. Payne, Cognition and Social Behavior, Hillsdale, N. J.: Lawerence Erlbaum, USA.
- Anderson, R. C. 1977. <The Notion of Schemata and the Educational Enterprise> in (eds.) R. C. Anderson, R. J. Spiro & W. E. Montague.
- Brown, G & Yule, G. 1983. Discourse Analysis. Cambridge University Press, UK.
- Charniak, E. 1975. <Organization and Inference in a Frame-Like System of Common-Sense Knowledge> in (eds.) R. C. Schank& B. L. Nash- Webber.
- De Beaugrande. 1980. Text, Discourse and Process. London: Longman, UK.
- Eco, Unberto. 1985. Lector in Fabula, (ed) Grasset et Fasquelle. Paris, France.
- Hayes, P. J. 1979. <The Logic of Frames> in (ed.) D. Metzing.
- Leech, G. N. 1969. A Linguistic Guide to English Poetry. London: Longman, UK.
- Minsky, M. 1975. <A Framework for Representing> in (ed.) Winston, P. H. The Psychology of computer Vision, New York: McGraw-Hill, USA.
- Randall, M. 1985. Context and Convention. The Pragmatics of Literariness in Poetics. 14.
- Sanford, A.J. &Garrod, S.C. 1981. Understanding Written Language Chichester: Wiley.
- Schank, R. C. 1972. <Conceptual Dependency: A Theory of Natural Language Understanding> Cognitive Psychology 3.
- Schank, R. C. & Abelson, R. 1977. Scripts, Goals and Understanding Hillsdale, N. J.: LawerenceErlbaum,USA.
- Tannen, D. 1979. 'What's in a Frame? Surface Evidence for Underlying Expectation' in (ed.) R. O. Freedle (1979).
- Van Dijik, T. A. 1977. Text and Context. Longman: London, UK.
- Van Dijk, T. A. 1981. 'Review of R. O. Freedle (ed.) 1979 'Journal of Linguistics 17:140-8.
- Van Dijk, T. A. 1984. Texte, in Dictionnaire des Litterateurs Francais. edition, Bordas, Paris, France.